ومهما يبلغ التفاوت بين هذه الآراء، يبقى قاسم مشترك بينها، وهو أن العقيدة الدينية ليست هي التي تحدّد طابع أدبه، ويدلّون على ذلك بالقول: إن الإطار الفني والنفسي لروايات عجنون، لا يتفق مع دائرة الإمكانيات الواقعية والفكرية الكامنة في اليهودية الأرثوذكسية. فهو لا يتماثل مع شخصيات رواياته. فإلى جانب النظرة المتعاطفة جداً مع أنماط الحياة اليهودية الدينية، هناك مكان لنظرة أخرى، ويمكن أن نجد ذلك في انتقاد عجنون، في رواية «الأمس الأول»، لسكان حي ميئاه شعاريم، في القدس، المغالين في تديّنهم. وإن كنا نجد في الرواية نفسها دعوة مستمرة إلى الحفاظ على المناسك الدينية، والقول: إنّ البعد عن الدين اليهودي وقِيَمِه يجلب الكوارث، فإن صورة اليهودية في كتابات عجنون ليست متكاملة، ومن الصعب الإفتراض أن وراءها موقفاً دينياً مستقراً وثابتاً. فالصيغة التقليدية التي يضفيها عجنون على رواياته هي القشرة الخارجية فقط. وهي تستخدم قناعاً في الاتصال بين الأدب وقرائه.

عناصر كتابات عجنون

الأساس الديني: حقاً إن للإساس الديني أهمية خاصة في روايات عجنون، إلا أن هذا لا يمكن أن يحوّله إلى كاتب ديني. ويمكن القول أن رواياته هي مظهر خاص لتشكيل الأساس الديني في الأدب العبري العلماني[٢]. إذ تدور المشكلة الدينية عنده حول كشف الواقع اليهودي، الذي تتناقض فيه اليهودية التقليدية، ولكن دون إتخاذ موقف حاسم من هذه المسألة. فالأساس الديني لدى عجنون يتعدى كونه واقعاً فنياً محضاً، ليقود دائماً إلى مركز الصراع حول تفسير الوجود اليهودي.

ويبدو أن عجنون ينطلق، في هذا الموقف، من معارضته لتجميد صور الحياة التقليدية، التي تعتبر إستمراراً لما نادى به رجال الهسكلا. غير أن الأمر لديه يختلف عنه في روايات أدباء الهسكلا، فهو لا يوجّه أصابع الإتهام إلى اليهودية التقليدية بِرُمّتها، كما فعل رجال الهسكلا. فرواياته لا تستخف بجوهر الحياة الدينية التقليدية، بل تطالب اليهودية التقليدية بأن تبدي رأيها، في ضرورة إجراء مراجعة في داخل إطارها الذاتي، مما يدفع عجنون إلى كشف تفسُّخ الحياة الدينية، على النحو الذي أشرنا إليه حين تحدّثنا عن موقفه من حي ميئاه شعاريم في القدس. كما أنه لا يكِلُّ عن استنكار تفسّخ الحياة العلمانية، نتيجة إفراغها من المضمون الديني اليهودي. ويظهر ذلك جلياً في رواية «الأمس الأول» التي تنتقد الصهيونية السياسية من ناحية إهمالها المضمون اليهودي، لدى المستوطنين الجدد القادمين إلى فلسطين.

الصراع بين الأجيال وموضوع العودة: هنالك مشكلة أخرى مرتبطة بالمشكلة الدينية في أدب عجنون، وهي مشكلة الصراع بين الأجيال والتعارض بين العرف الجماعي في المجتمع، وبين الاتجاهات الفردية للجيل الجديد.

كذلك يرتبط موضوع العودة المتأخرة بموضوع الخروج. حيث أن الأسباب التي التي تدفع الربي يوديل في رواية «زفاف العروس» ومنشأ حاييم في رواية «استقام المعوج»